لقد قلتَ يوماً: «إنّ تاريخ الشعوب ليس من صنع فردٍ واحد، وإنّما هو الرغبة في الالتحاق بنضال الجماهير المتواصل لهزيمة جميع أشكال الاستغلال القومي والطبقي».

أؤمن أنّك كنت على حقّ. غير أنَّ رجالاً عظاماً وشرفاء مثلك يا غسّان هم من يُعطي للشعوب المناضلة القدوة. لقد أثبتَّ لشعبك الفلسطيني أنّه يحارب معركة عادلة، وبموتك الآن تُشجِّع شعبك على مواصلة النضال.

لقد جئتُ إلى لبنان منذ عشر سنوات لكي «أدرس» المشكلة الفلسطينيّة. فيك، وجدت فلسطين ـ أرضاً وشعباً ـ، ومن خلال زواجنا صرتُ جزءاً من فلسطين، أُمّاً لطفلينْ فلسطينيّيْن: فايز وليْلى.

منذ اللحظة الأولى للقائنا، وثقتُ بك، يا غسّان. لقد كنتَ على الدوام كليّ الصدق. حتى حين عرضتَ عليّ الزواج، فرشتَ أوراقك على الطاولة: لا وطن، لا مستقبل، لا مال، لا جواز سفر، ومرض مُزمن ضارٍ. ولم يشكّل ذلك كله عندي أيّ عائق؛ فأنا أحببتك أنت يا غسّان وأُعجبت بك أنت. وعلى الرغم من «الوعود» الكثيرة المخفقة، فقد أعطيتني ما يقرب من إحدى عشرة سنة هي أجمل ما في حياتي وأشدّها أهميّة، وهي سنوات سوف أعبّ منها العزيمة من أجل مواصلة السنوات الصعبة القادمة.

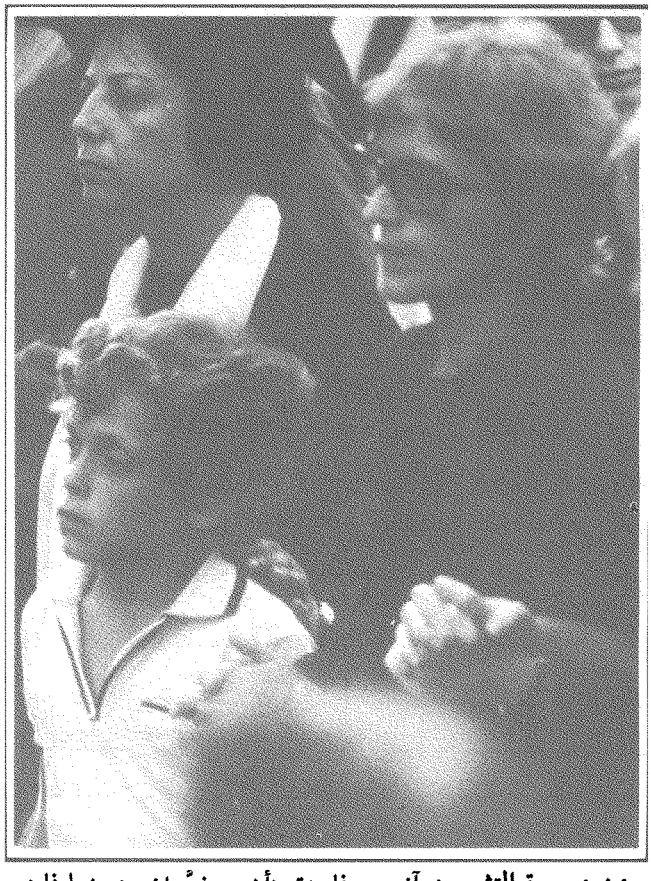

من مسيرة التشييع: آني، وفايزة (أخت غسّان) وبينهما فايز

لقد كنتَ بالنسبة لفايز، ولليلى، ولي، أكثر من أب وزوج رائع؛ لقد كنت أستاذاً ورفيقاً أيضاً. وفي أيّام الآحاد، كنتَ تكرّس نفسكَ لثلاثتنا. أحْببتَ منزلنا، وأحببتَ عملَك في الحديقة، ووضعَك اليدين في التربة؛ وأحببتَ اللعب مع الأطفال والقطط، وشربَ القهوة أثناء ترجمتك لي قصصَك ومقالاتِك. أحياناً، كنّا نتكلّم فحسب. وكنت تستمتع بالعمل ـ بالكتابة، والرسم، والعمل بالحديقة ـ؛ وكانت يداك الخيّرتان الجميلتان وعقلك الخيّر الجميل لا تكفّ عن الخلق، وعن العطاء.

كانت قدرتك العظيمة على إقناع الزوّار الأجانب بعدالة القضيّة الفلسطينيّة أمراً معلوماً. استطعتَ أن تشرح، بكلمات بسيطة، أصعَبَ الأفكار السياسيّة. ولهذا استمع الناس إليك، وقرأوا مقالاتك وكتبك، وسوف يستمرّون في قراءتها. ولهذا أيضاً كان يجب على الأعداء أن يدمّروك. لكنّهم لم يُفلِحوا. فالحال أن لا أحد يقدر على تحطيم إنسان شريف متجذّر في شعبه عبر النضال الثوري. سوف تكون دوماً معنا يا غسّان: شهيداً، ورمزاً، وشعلة تحرير وثورة للشعب الفلسطيني وللشعوب الآفرو ـ آسيوية الأخرى.

وإنّه ليبدو لفايز ولليلى ولي أنّك تشرع لتوّك في رحلة طويلة إلى جانب لميس التي أحببتَها حبّاً جمّاً والتي ألهمتك قصصاً كتبتَها لها منذ اللحظة الأولى لولادتها. عزيزتنا لميس كانت من الخير، والحلاوة، والصبر، والذكاء، بحيث أنَّ الجميع أحبّها. وكانت مثلك تحبّ الناس والحياة، وأحبَّت والديها وإخوتها حبّاً عظيماً، وكان حبّها لك وإعجابها بك عميقاً وصادقاً. وفي صبيحة ذلك السبت، ٨ تموز، ولأنّه كان عليّ أن ألازم المنزل كي أعتني بليلى وفايز، اصطحَبَتْك عزيزتنا لميس في الرحلة غير المتوقّعة رجوعاً إلى حَبيبتك فلسطين.

لقد كانت مراسم مأتمك ومأتم لميس وعدَ الشعب بمواصلة النضال الثوري وتطويره. سوف أبقى أبدَ الدهر فخورة بأنّي زوجتك؛ لم أرد أن أبكي، بل أن أواصل نضالك. وحين مشيتُ مع عائلتنا، ومع أُمّ سعد وكلّ الناس الأقوياء الرائعين من أبناء المخيّمات وخارجها، أحسَسْتُ بتلك القوّة إحساساً عظيماً، حتّى إنّي دعوت «فايز» لمشاركتنا. وبمشيته الفخورة في طليعة الجنازة، أدرك الجميع أنّه ابن غسّان، ولم يشكّ أحد في أنَّ فايز، كما حبيبتنا ليلى وغيرها من الأطفال الفلسطينيّين، سوف يستلمون المشعل ويواصلون النضال من أجل الشعب الفلسطيني. ويوماً ما، سوف تصبح فلسطين ذلك العالمَ الذي أردت أن تهديَه «إلى لميس وفايز وجميع الأطفال الذين لا عالمَ لهم».

المخلصة

آني